جواسيس الحرب العالمية الأولى

مع اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى ، كانت وسائل النقل والاتصال قد قطعت شوطاً بعيداً من التطور ، فتقدم استخدام المواصلات البخارية براً وبحراً ، وازدهرت المواصلات السلكية واللاسلكية ، وتضاعف النشاط الدبلوماسي وانتشر ، وطورت الحكومات أجهزة المخابرات حجما وتدريباً وكفاءة ، خاصة بعد تطوير صناعة الطائرات . واتخذت إجراءات طارئه صارمة غير عادية أسندتها لأجهزة المخابرات .

من ذلك ـ مثلا ـ أن بريطانيا ألقت القبض على جميع العملاء والجواسيس ، بل والأجانب المشتبه فيهم داخل بلادها ، كإجراء وقائى لتأمين أسرارها وحماية منشأتها . واستطاعت المخابرات البريطانية الحصول على الشفرة البحرية الألمانية ، فأمكنها تتبع كل تحركات الأسطول الألمانى الكبرى ، التى خططتها ألمانيا .

★ الخباز بيتر هاهن

فرضت معظم الحكومات رقابة صارمة على البريد خلال الحرب العالمية الأولى ، ونتيجة لذلك أحرز المراقبون البريطانيون نتائج عظمية . منها أنهم اكتشفوا ذات مرة أن صحيفة مرسلة من « **دبتفورد** » ، معنونة إلى مكان فى « **أمستردام** » ضمن قائمة العناوين المشبوهة . أثبتت الاختبارات أن رسالة كتبت على الجريدة بالحبر السرى . تقول الرسالة : «ذهب ـ س ـ إلى الشمال ـ أكتب لكم من ٢٠١» .

بلغت رقابة البريد جهاز المخابرات فى الحال ، ولما كانت الجريدة مرسلة من «ديبتفورد» . بحثوا عن شارع طويل بما يكفى لوجود مبنى برقم ٢٠١ فوجدوا شارعاً واحداً وهو شارع «**هاى ستريت**» . واتضح أنه عنوان خباز اسمه «بيتر هان» ، وهو رجل ألمانى الأصل ، وبتفتيش المكان عثروا على زجاجة حبر سرى .

من خلال «هان» استطاعت المخابرات البريطانية ـ المتمثلة فى «سكوتلانديارد» آنذاك ـ أن تتقصى شخصية ـ س ـ الغامض ، فاتضح أنه جاسوس ألمانى اسمه «مولر» . ذهب إلى الشمال للحصول على معلومات عن القواعد البحرية البريطانية. تم القبض على «مولر» ، وحوكم ثم نفذ فيه حكم الإعدام ، لكن البريطانيين ظلوا

obeikandl.com

يرسلون رسائل إلى عنوان أمستردام باسمه ، تحتوى على معلومات مزيفة ، ويستلمون رسائل من المخابرات الألمانية التى لم تفطن إلى مقتل «مولر» ، حتى أنها أرسلت له ٤٠٠ جنيه استرلينى كأجر متأخر .

★ جواسيس بالجملة

وتتميز الحرب العالمية الأولى بظهور أسماء جواسيس مشهورين كثيرين ، انتشر الخوف منهم فى كل مكان . حام الشك حول أى شخص يحمل اسما يبدو أجنبياً ، وعانى أشخاص كثيرون فى مختلف الأوطان من ذلك رغم براءتهم . ومع ذلك كان الجواسيس الحقيقيون طلقاء يعيثون فى الأرض فسادا ويعبثون فى الخفاء لأن الجاسوسية أصبحت حرفة ، فقد أقيمت مراكز ومدارس تعليم الجاسوسية والتدريب على فنونها فى كل الدول المتقدمة . وكان فى ألمانيا وحدها . ما لا يقل عن ثلاثة مدارس ، من بينها مدرسة الجاسوسية الألمانية فى «**بادن ـ بادن**» التى تخرجت منها فتاة لتصبح مديرة مدرسة جاسوسية جديدة فى «**أنتويرب**» أثناء احتلال بلجيكا . كان اسم الفتاة دكتورة «**الزبث شراجمولر**» . تحت إدارتها الصارمة صارت مدرسة أنتويرب أشهر مدارس الجاسوسية .

قيست إنجازات المخابرات فى الحرب العالمية الأولى بأهمية العمليات وجدواها . فبدون «الفرقة رقم ٤٠» ـ وهى إدارة خاصة لفك الرموز والشفرات بالأدميرالية البريطانية ـ لما أمكن اكتشاف وحل شفرة زيمرمان التلغرافية ، ولما دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء .

كانت الحرب العالمية الأولى حرب إمبراطوريات عظمى . استخدم فيها الطرفان الجواسيس لإشاعة القلق ، والفوضى ، والخوف ، والخلاف ، وانخفاض الروح المعنوية ، وتفشى انعدام الولاء والانتماء بين الشعوب وحكوماتها ، وحبك المؤامرات، وتخريب الرأى العام ، ونشر الشائعات المدمرة . من بين هؤلاء الجواسيس:

مارث ريتشر : الفتاة الفرنسية التى استخدمها الألمان ، ولكنها فى النهاية أخلصت لبلادها ، وأفشت للمخابرات الفرنسية تركيب حبر سرى جديد تستخدمه المخابرات الألمانية ، وزودتها بتفاصيل الغواصة الألمانية «**يو ـ ٥٢**» .

الكولونيل تى . لورانس: المعروف باسم «**لورنس العرب**» أجاد اللغة العربية .

وتخفى فى شخصية عربية يرتدى ملابس العرب ، ليطوف فى أراضى تركيا ، وفى الصحراء ، وحرك ثورة عظيمة ضد الحكم التركى ، ولقى مصرعه فى حادث دراجة نارية فى إنجلترا بعد الحرب .

ويلهيلم واسيموس : عمل بنفس طريقة «لورانس العرب» بين القبائل القاطنة بين مرتفعات «**فارس**» ، فألب القبائل الإيرانية ضد كل من تركيا وبريطانيا . وكان فى الأصل قنصلا لألمانيا فى إيران ، اعتمد فى عملياته على دفع الأموال بسخاء لرؤساء القبائل والمرتزقة ، وسوف نسوق قصته بشئ من التفصيل .

ماتا هارى : أو «عين الفجر» ، الراقصة الفاتنة التى صارت أشهر إناث الجواسيس فى التاريخ . اسمها الحقيقى «**مارجريت زيل**» . وسميت فيما بعد «مارجريت ماكليود» . قبض عليها الفرنسيون عام ١٩١٧ باعتبارها جاسوسة ألمانية مارست نشاطها فى باريس ، ورومانيا ، وفيينا ، وبرلين ، وغيرها ، من عام ١٩٠٥ـ١٩١٧ ، وزعمت أنها بريئة . وأعرب بعض المؤرخين عن شكهم فى أنها كانت جاسوسة . وقالوا إنها كانت غانية غامضة لها عشاق كثيرون ، قادة وزعماء فى بلدان كثيرة ، لم يثبت عليها جرم ، إلا أنها أُعدمت فى باريس ، بلا إدانة ثابتة، خوفا من أن تؤدى محاكمتها إلى تلويث سمعة شخصيات مرموقة ، وكشف فضائح رهيبة .

فرانز فون رينتلين : فى صيف عام ١٩١٤ ، اكتسحت القوات الروسية بسهولة فرقتين ألمانيتين فى بروسيا الشرقية ، ودفعت روسيا لهذا النصر ثمنا فادحا من الأسلحة والمعدات ، إذ منى الروس بخسائر فادحة فى معركة تانبنيرج حينما واجهوا نيران مدفعية لا ينقطع انهمارها ، ولا حيلة لهم فى الرد عليها . وأدركت موسكو ضرورة شراء السلاح من أمريكا بأسرع ما يمكن ، فاتصلت ألمانيا بعميلها «فون رينتلن» ليعطل أى صفقة أسلحة تحاول روسيا عقدها مع مصانع أمريكية ، لأن تصدير الأسلحة إلى روسيا يؤدى إلى قتل المزيد من الجنود الألمان ، كما أن إيقاف التصدير يعنى سهولة قتل المزيد من الجنود الروس .. وجد «رينتلين» أن عشرات المصانع الأمريكية قد أوفت بالتزاماتها ونفذت عقودها ، وأن جانبا كبيراً من الأسلحة والذخائر والملابس العسكرية المشتراة جاثمة فى صناديقها على أرصفة ميناء نيويورك تنتظر الشحن .

حصل «رينتلين» على جهاز إشعال حرائق كيميائى ، كلف خبيرا بصنع عدداً كبيراً منه ، واستأجر من عمال الميناء من يزرعون تلك الأجهزة فى الشاحنات ، فأضرمت سلسلة من الحرائق على طول الطريق البحرى من نيويورك إلى الميناء الروسى «أرشخجل» تأكل السفينة تلو الأخرى .

زاد رينتلين على ذلك بإنشاء شركة مع رجل ألمانى آخر ، وقدم إلى روسيا عروضا لتوريد أسلحة ، وأمن عقودا بملايين الدولارات ، لتوريد الطعام والملابس الشتوية ، والأحذية ، ومطابخ الميدان ، والخيول ، والذخيرة . وتعهد بالتسليم خلال ٤٥ يوما . لكنه فى نهاية الأيام الخمس والأربعين لم يورد شيئا ، وبات واضحا أنه يبدد الوقت سدى ، وشكّل بذلك ضغطا من جانب الألمان على روسيا ، وتخلى الجنود الروس عن مواقعهم أمواتا أو منسحبين ، وعجزت القوات الروسية عن الصمود أمام هجوم الجنرال الألمانى «فون واكنسين» فى بولندا ، فتقهقرت تاركة بنادقها ومدافعها الميدانية خالية من الطلقات والقذائف ، بعد أن أصبحت المقاومة مستحيلة . وكانت خسائر الروس مهولة فاقت توقعات الألمان أنفسهم .

ولاشك أن البطل الحقيقى فى هذه المعارك كان الجاسوس «رينتلين» الذى جرد جيش روسيا من سلاحه ، وجعله فريسة سهلة لجيش الجنرال فون واكنسين وغيره . وأثبت الجاسوس الألمانى فى هذه العملية أنه من أكفأ العملاء السريين حتى الآن. ومع أنه كان داهية فائق الذكاء ، إلاّ أن نشاطه كجاسوس انتهى فى أغسطس ١٩١٥ ، عندما تسلم رسالة من ألمانيا تدعوه إلى الحضور . كانت الرسالة مزيفة دستها المخابرات البريطانية ، فغادر أمريكا على ظهر سفينة هولندية ، ليجد نفسه فى الفخ ، عندما دخلت السفينة المياه البريطانية ، واقتحمت عليه غرفته مجموعة من الضباط شاهرين السلاح ليستقر فى أحد سجون بريطانيا .

★ ويلهيلم واسموس لورنس الألمانى

لم يكن «**لورنس الألمانى**» يشبه فى شئ «لورنس العرب» ، ذلك الإنجليزى الذى كان يرتدى ثياب العرب ، ويمخر بالجمل عباب الصحراء . كان «**ويلهيلم واسموس**» قصير القامة ، بدينا ، جسورا ، ذا وجه مستدير ، عيناه ضيقتان وراء عوينات كبيرة . له طلعة توحى بأن مندوب شركة تأمين ، ومع ذلك ، فهو الرجل الذى رصدت بريطانيا لمن يقبض عليه حيا أو ميتا مبلغ ٥٠٠٠٠٠ جنيه

إسترلينى ، إذ شغل جيشا بريطانيا بأكمله ، وكان الملك الحقيقى لقبائل الجبال العنيفة ، وأوشك على تغيير التاريخ ، وعلى الرغم من أنه لم يتدرب مطلقا على مثل هذه المهام ، كان جاسوسا من الطراز الأول ، لا من ذلك الطراز الذى يجمع المعلومات ، وإنما اختص بالعمل على تغيير النظام السياسى لأمة بأكملها ، من أجل مصلحة بلاده . وقد استخدم «واسموس» وسائل أصبحت فيما بعد مصادر إلهام فى جاسوسية الحرب الباردة ، لإثارة الفتن والقلاقل بين الشعوب ، بالرشوة ، والدعاية ، والشائعات ، والتلاعب ، والمناورات السياسية .

لم يكن «واسموس» يعرف شيئا عن دوره المقبل ، حينما عين قنصلا فى «بوشهر» بفارس عام ١٩٠٩ . كان عمره آنذاك ٢٩ سنة ، من ألمع نجوم الدبلوماسية الألمانية . وكان قد وصل فى وقت حرج إلى مكان حساس . إذ كانت بلاد فارس ميدان المعركة بين ألمانيا وبريطانيا من أجل غنيمة لا تقدر بثمن ، ألا وهى النفط ، الذى يجعل الفائز قادرا على تشغيل أدوات إنتاجه الصناعى الضخمة بكامل طاقتها ، فيحتل المركز الدولى الأول ، بينما يقع الخاسر بالمركز الثانى .

كان الشعب الفارسى يعيش فى ظروف تخلف كما لو كان فى القرن الثانى عشر . وكانت حكومة المملكة الفارسية فى حالة ضعف تعجز معها عن مجادلة أى من الطرفين . وكانت مضغوطة بين الإمبراطورية العثمانية فى الغرب ، وروسيا فى الشمال ، والهند درة التاج البريطانى فى الجنوب ، والجنوب الغربى حيث توجد باكستان الآن . كان شاه إيران يرأس ـ آنذاك ـ مجلس إقطاع ، لكن نفوذه لا يكاد يمتد ـ فى الواقع ـ إلى أبعد من أميال قليلة خارج «طهران» ، وما بقى من البلاد فى قبضة زعماء قبائل من عتاة المقاتلين ، يهيمنون على السهول والتلال.

تقضى التعليمات الموجهة إلى «واسموس» ، بعمل كل ما من شأنه تنمية مصالح ألمانيا فى تلك المنطقة الحيوية . من أجل ذلك زودته حكومته بمبالغ ضخمة من النقد الذهبى ـ الذى كان متداولا حينذاك ـ ليشترى ولاء زعماء القبائل . وفى الوقت نفسه كان البريطانيون يشترون ولاء الزعماء ، مما خلق فى ربوع إيران سوقا لبيع الولاء والإخلاص والانتماء . وفى عام ١٩١٤م دخلت كل من ألمانيا وبريطانيا الحرب : واستفادت بريطانيا من وجود قواتها فى الهند ونفوذها

فى المنطقة ، فحركت عدة فرق عسكرية إلى إيران . وتأزمت الأمور ، فانسحب الدبلوماسيون الألمان من «بوشهر» بعد أن أصبحت توقعاتهم فى إيران فى حكم المستحيل ، إلا أن «واسموس» لم يعترف بالهزيمة .

أخبر «واسموس» رؤساءه فى «برلين» بأنه سيتخلف فى «إيران» ، ويحارب الاحتلال البريطانى من قمم التلال . وفى الوقت نفسه أخبر المخابرات الألمانية أنه سيكون عيونها فى المنطقة ، وقبلت برلين العرض ، رغم يأسها من أن يحقق دبلوماسى ألمانى بمفرده أدنى إنجاز ، فى منطقة أضحت تحت سيطرة الإنجليز بأكملها .

بقى مع «واسموس» رجل واحد هو مساعد القنصل الألمانى ، ومبلغ ١٤٠٠٠٠ مارك ألمانى ذهبى ، وسرعان ما أظهر قدرة فائقة على التنظيم ، ونشاطا منقطع النظير ، وعزيمة لا تلين . كان يجيد التحدث باللغة الفارسية واللهجة التاجستانية ، فتمكن خلال أشهر قلائل من أن يعبئ قبائل الجبال فى قوات تتصدى للإنجليز ، فوجد الإنجليز أنفسهم هدفا للغارات منذ اللحظة التى تحركوا فيها من قواعدهم الساحلية . ونظم حملة دعاية قوية امتدت خلال منطقة الخليج ، معتمدا فيها على شبكة من المواطنين الفرس المثقفين ، يحثون الناس على الجهاد ، وحمل السلاح ضد المستعمر البريطانى «الذى دنس الأراضى الإسلامية» وتأثر بهذه الدعوى كثير من المسلمين شيوخاً وشباباً ، خاصة طلاب العلوم الدينية ، ومن بينهم طالب اسمه «الخمينى» ، حكم إيران فيما بعد .

فى عام ١٩١٦م ، أصبح «واسموس» خطرا عظيما يحدق بالإنجليز ، لم يكتف بتحويل إيران إلى عش زنابير ، وإنما مد نشاطه العدائى إلى الإنجليز فى أفغانستان ، فألب القبائل عليهم ، وحرضهم على شن الغارات عليهم . عرف الإنجليز أن «واسموس» قد أصبح بطلاً أثار إعجاب الفرس ، رغم أنه لا يكاد يجيد ركوب الخيل . لقد كسب قلوبهم واحترامهم . لقد ساعده فى ذلك سيل الذهب الذى كان يتدفق من «برلين» ، وكان يعجبهم فيه طلاقة لسانه بلغتهم ، وقدرته على إقناعهم .

يضاف إلى ذلك أن «واسموس» تزوج ابنة زعيم قبيلة مجوسى قوى ، وحضر حفل الزفاف آلاف الفارسيين العاديين ، من بينهم شبكة جواسيس نظمها

«واسموس» ، يغطى نشاطها جميع أنحاء إيران وجزءا من أفغانستان ، كان يسميها: «العشرة آلاف عين» .

قرر الإنجليز التخلص من «واسموس» ، لكن كل الحملات المسلحة التى جردوها فشلت فى الإيقاع به ، لأن أعوانه كانوا يحذرونه دائماً فى الوقت المناسب. واكتشف الإنجليز أن «شبكة العشرة آلاف عين» نفسها امتد نشاطها إلى الهند ، وظهر ما يدل على أن الألمان يعرفون كل التحركات العسكرية البريطانية من بغداد إلى بومباى . ودفع اليأس بالسلطات البريطانية إلى رصد مكافأة مقدارها ٥٠٠٠٠٠ جنيه إسترلينى إلى من يقبض على «واسموس» ، لكنهم لم يعثروا على من يقبل العرض .

فى أوائل عام ١٩١٧م تحولت رياح الحرب ضد ألمانيا ، وبدأ الفرس يبحثون عن مصالحهم ، ورأوا أن الوقت قد حان لعقد صفقة مع بريطانيا ، خصوصا وأن ينبوع الذهب الألمانى بدأ يجف ، بينما إمدادات الذهب البريطانى تبدو سخية . حاول «واسموس» تعويض نقص الذهب باستخدام مزيد من الدعاية والشائعات الخبيثة ، حتى أنه ادعى أنه قيصر ألمانيا اعتنق الدين الإسلامى .

وأخيرا بدأت بريطانيا هجوماً عاماً على شواطئ إيران ، استخدمت فيه أسطولا صغيرا من سفن الحرب ، و ١٠٠٠٠٠ جندى ، وأنهت المشكلة أوائل عام ١٩١٨م ، لكن «واسموس» تسلل إلى تركيا . واقتفى الإنجليز أثره بعد الهدنة . قبضوا عليه وسجنوه . ولما أطلقوا سراحه عام ١٩٢٠م ، عاش فقيرا يعض بنان الحسرة والندم ، كلما تذكر أن جهوده ذهبت هباء ، وأن إيران بنفطها النفيس سقطت فى قبضة نفوذ بريطانيا .

حاول «واسموس» أن يجرب ذكاءه فى مجال الأعمال ، لكنه اكتشف أن التعامل مع رجال القبائل عبر تلال إيران ووديانها ، أسهل من العمل فى أسواق ألمانيا واقتصادياتها الممزقة . وتوفى مريضا مفلساً عام ١٩٣١ ، منسيا من الجميع .

★ اجتياز الخطوط

اتخذت معظم عمليات القتال فى الحرب العالمية الأولى من الخنادق مسارح لها، والخطوط المحصنة أميالا ، فصار اجتياز الخطوط المهمة الرئيسية للجواسيس فى الميدان . فأصبح استخدام المظلات فى إسقاط الجواسيس فى أراضى العدو عبر

الحدود من أخطر تطورات الحرب العالمية الأولى . كان عملا خطيراً غالباً ما لا يتم إلا ليلا . وكان الطيران نفسه جديداً على الحرب ، والقفز بالمظلات يحتاج إلى شجاعة خاصة ، وتدريب شاق .

كان جواسيس المظلات ينقلون عادة فى مقصورة أسفل الطائرة ، يشرف على تشغيل بابها الملاح الجوى . وهذه الطريقة البدائية تضمن إسقاط الجاسوس حتى لو خذلته أعصابه فى اللحظة الأخيرة ، وكثيرا ما تسببت فى مشاكل . مثال ذلك أن الجاسوس المظلى الإيطالى «**أليساندرو تاندورا**» استغرق فى النوم داخل مقصورته الضيقة المملة ، وأفاق أثناء سقوطه من ارتفاع ٣٠٠٠ متر من سطح الأرض ، ومع ذلك هبط سالما .

عادة ما كان الجواسيس يهبطون فى مناطق يعمل فيها جواسيس مقيمون . وكان على الجواسيس المحليين أن يتأكدوا من أن الجواسيس القادمين فى صفهم وليسوا عملاء العدو . أدارت الجاسوسة البلجيكية «**مارث كنوكارث**» شبكة جاسوسية كبيرة بكفاءة عالية ، وأساليب تعارف محكمة ، وكان العملاء الذين يعبرون الخطوط لمساعدتها ، يحتفظون بدبوسين خلف طية السترة ، ولذا أطلقوا عليهم اسم : «رجال دبوس الأمان» .

كان نقل المعلومات من وراء الخطوط إلى قيادة المخابرات فى الوطن الأم عملية صعبة ، لذا استخدموا الحمام الزاجل . وكان الحمام يحتاج إلى عناية فائقة ... يحتاج إلى الطعام مرتين يوميا ، وإلى أن يحمله الجاسوس أينما ذهب فى الرحلات البعيد ، وكان اكتشاف الحمام الزاجل مع شخص يمثل خطراً عليه ، ومدعاة لاتهامه بالجاسوسية .

استخدم الجواسيس أجهزة لاسلكية ، فهى أكثر كفاءة وأمنا . يستطيع الجاسوس أن يخفيها عدة أيام دون أن يقترب منها . وعبر العملاء الخطوط حاملين الرسائل أيضا بعد أن ابتدعوا وسائل كثيرة لإخفائها . بعضهم أخفوها فى كعوب أحذيتهم، أو فى عين زجاجية ، أو ساق خشبية : ولجأت شبكة جاسوسية بلجيكية إلى تهريب الرسائل فى طيات كفن الميت الهولندى ، بعد أن طلبت من السلطات الألمانية ترخيصا بدفن جثته فى أرض هولندية . وهكذا أرسلوا الرسائل إلى القنصل البريطانى فى هولندا «**ميجور أوبنهايمر**» .

في بعض الأحوال كانت طائرات تلقط الجاسوس بعد تأدية مهمته وراء الخطوط ، غير أن ذلك كان عملاً خطيراً ، فمن الصعب هبوط طائرة وراء الخطوط بدون اكتشافها . وفي أغلب الأحيان كان على الجاسوس أن يعود أدراجه بمعرفته ، والموت له لو قُبض عليه .

★ نيكولاى و نادجيدا سكوبلن

بدى الأمر كأنه مشهد سينمائي : الجاسوسة الحسناء مقيدة إلى وتد ، رافضة وضع عصابة على عينيها ، وفرقة الإعدام توشك أن تنهى حياتها . حرك جمالها وشجاعتها مشاعر الضابط الفارس الشاب ، فتقدم على جواده، وأمر فريق الرماة ألا يطلقوا النار . فك وثاقها وأطلق سراحها على مسئوليته . وقال أنه سيعالج هذا الأمر بنفسه .. تلك هي الطريقة التي قابل بها الجنرال «**نيكولاى سكوبلن**» الحسناء «**نادجيدا فاسيليفنا**» أول مرة ، في ذات صباح باكر ، من ربيع عام ١٩٢٠ جنوب روسيا . وفي هذه اللحظة سقط في حبها . وتلت ذلك نتائج أضرت بالاتحاد السوفيتي ، وأدت إلى مقتل أكثر من ٣٠٠٠٠ رجل ، وكان «سكوبلن» نفسه أحد الضحايا .

كل من «**سكوبلن**» و «**فاسيليفنا**» لهما سمات تشبه شخصيات من أوبرا «**رومانوف الكبير**» ، من حيث المولد الأرستقراطي . وكان «سكوبلن» ضابطا من فرسان القيصر خلال الحرب العالمية الأولى ، ولما قبض البولشفيك على زمام السلطة في روسيا ، حارب «سكوبلن» إلى الجانب الأبيض في الحرب الأهلية الروسية . وفي عام ١٩٢٠م كان يقاتل معركة خاسرة ضد الجيش الأحمر في جنوب روسيا ، في السنة نفسها التي التقى فيها ذلك اللقاء القدرى مع «**نادجيدا فاسيليفنا**» .

أما هي فقد ولدت أيضا لأسرة أرستقراطية ، وأصبحت مغنية أوبرا . وأطلقوا عليها قبل الحرب اسم «العندليب» . تعودت على الرفاهية وحياة الحفلات ، والمساكن الشاعرية ، والملابس الأنيقة ، والمجوهرات الثمينة . أفسدت ثورة البولشفيك عالمها ، فلا مجال فيها للرفاهية . وزاد حالها سوءا أنها تزوجت فنان باليه مفلساً اسمه «**إدموند بليفتيسكى**» . في نهاية عام ١٩١٨ يئست من الحصول على المال ، فلم يعد المعجبون يمطرونها بالمال والجواهر .

obeikandl.com

قررت وكالة المخابرات البولشيفية انتهاز الفرصة ، واستثمار جوع المرأة ونهمها للمال فى استخدامها عميلة ضد القوات البيضاء . وفى عام ١٩١٨ كلفتها المخابرات البولشفية باختراق مختلف المنظمات البيضاء ، التى تهدد النظام الروسى الجديد .

كانت «فاسيليفنا» مناسبة تماما وإلى حد بعيد لأداء دورها . كانت تسافر متجولة خلال المناطق التى يحتلها البيض ، ترفه عن الجنود ببرامج مجانية ، وتعقد صداقات مع زعماء أعداء البولشفيك ، الذين طالما أعجبتهم «العندليب» . وخلال العملية بدأت تجمع معلومات من البيض ، لتحصل على معلومات مفصلة أكثر .

فى عام ١٩٢٠ ، وفى ذروة الحرب الأهلية ثارت شبهات حول إمكان وجود علاقة بين زيارات «**فاسيليفنا**» ، وسلسلة من الهزائم العسكرية المفجعة وفى أوائل عام ١٩٢٠ . ضبطوا بعض رسائلها إلى مخابرات «**البولشفيك**» ، وبذا حصل البيض على دليل إدانة ، فاعتقلوها ، وأمروا بإعدامها رميا بالرصاص .

افتتن «**نيكولاى سكوبلن**» بها ، وكان عازما على الصفح عن اعترافها بأنها كانت تعمل لصالح البولشفيك المكروهين . مثل هذا الاعتراف لو حدث فى ظروف عادية ، لأنهى فائدة «فاسيليفنا» كعميلة ، لكن مخابرات البولشفيك توصلت إلى فكرة أخرى ، وهى تجنيد «نيكولاى سكوبلن» كعميل ، فقد كانت تعلم مدى تشبعه بفكرة «**روسيا المقدسة**» ، الأرض الخرافية التى وجدت قبل القياصرة . رأى «سكوبلن» من خلال جنون العظمة أنه زعيم لكل الحركة الجديدة التى تستولى على كل أراضى روسيا يوما ما ، وتجعل البلاد قطعة من حكايات الجن الخرافية . فى أواخر عام ١٩٢٠ انسحبت «فاسيليفنا» و «سكوبلن» مع الباقين من القوات البيضاء إلى تركيا ، المنفى الدائم .

كان «سكوبلن» يستخدم مخابرات البولشفيك للوصول إلى هدفه . عن طريقهم وباسمهم يحطم حركة الروس المنفيين ، ويفوز بالسلطة ، وإذا حقق هذا الهدف ، وعاد إلى روسيا ، أمكنه قيادة جيش صليبى مقدس عظيم ، واسترد به روسيا ، وحطم البولشفيك ، بما فى ذلك مخابراتهم .

ذهب «سكوبلن» و «فاسيليفنا» إلى باريس حيث قيادة حركة الروس المنفيين التى شكلت عام ١٩٢١ تهديدا ملحوظا للنظام الشيوعى الضعيف . كانت قد

حشدت أكثر من ٣٠٠٠٠٠ رجل مسلح نذروا أنفسهم لقضية القيصرية وحصلت على تمويل جيد من قرابة مليون عضو منتشرين فى جميع أنحاء العالم . وقد أوكل «لينين» مهمة تحييد هذا الخطر أو القضاء عليه إلى المخابرات البلشفية ، وكان «سكوبلن» الأداة الأولى لتنفيذ هذه المهمة . تزوج « فاسيليفنا» ، وبدأ يخترق حركة المنفيين ، وساعده على ذلك ماضيه النظيف ، وخبرته العسكرية ، وسجله الثابت عن تحدى البلشفية ، فلم يشك أحد فى إخلاصه . وفى أوائل الثلاثينات أصبح زعيما للمنظمات المضادة للبلشفية ، والقوى الرئيسية للمنفيين . ومن هذا الموقع استطاع أن يبلغ موسكو عن رجال المقاومة الذين اجتازوا الحدود خفية إلى روسيا ، لتشكيل وحدات مقاتلة مضادة للبلشفية . وعرف أيضاً عمليات التزوير المكثفة التى يجريها المنفيون ، والتى تشمل وثائق مزيفة قيل أنها أصلية ، من ملفات الشرطة القيصرية السرية ، تثبت أن ستالين كان جاسوسا للشرطة .

نجحت عمليات «سكوبلن» فى تحريك عمليات تقييم دورية لحركة المنفيين يجريها زعماؤها . وتوصلوا إلى أن النتائج غير مشجعة . كل فرق رجال المقاومة التى اجتازت الحدود إلى الاتحاد السوفيتى اختفت ، ولم يظهر منهم أحد . تغير اسم «**المخابرات البلشفية**» إلى اسم «**المخابرات السوفيتية**» ، وأمكنها إحباط كل حركة منفيين . علاوة على ذلك صار المنفيون الذين ينضمون كعملاء لمنظمات المخابرات المختلفة يقعون فريسة للخيانة بطريقة روتينية . وبعد ١٥ سنة من مغادرة روسيا ، لم يتمكن المنفيون من إحراز أدنى نجاح فى أية عملية بالاتحاد السوفيتى .

بناء عليه ، تحتم على زعماء المنفيين أن يتحققوا من أنفسهم ، ويلقون نظرة فاحصة على أنفسهم : هل يحتمل أن يكون شخص رفيع المستوى فى المنظمة يخون القضية ويتصل بموسكو ؟

اتجهت الشكوك نحو «سكوبلن» و «نادجيدا» . فالرجل يعرف كل صغيرة وكبيرة من أسرار المنفيين ، وهو كثير السؤال عن كل ما يستجد ويعرف عن المنظمة ما لا يعرفه غيره ، بحكم رئاسته لشعبه العمليات المضادة للجاسوسية الخارجية . ومن حقه أن يعرف خطط الحركة . ومن ناحية أخرى لفت أسلوب حياتهم المترفة ومستوى معيشتهم المرتفع الأنظار ، خصوصا وأنه لا يملك مصدراً ظاهراً لإيراد . ادعت «نادجيدا سكوبلن» أن دخلا جيدا يصلها من عملها ، لكن

عملها فى فرنسا لا يدر هذا القدر من المال الذى ينفقانه ببذخ .

ظل «سكوبلن» تحت مجهر الشك فترة ، رغم عدم وجود دليل قوى . لم يبدى أدنى اكتراث بهذه الشكوك ، وفى عام ١٩٣٦ قام بأعباء أكبر وظيفة تقلدها من المخابرات السوفيتية . وقد بدأت هذه المهمة بأن تقدم «سكوبلن» إلى مخابرات النازى الألمانى . وعرض عليهم خدماته مدعيا أنه يريد مساعدتهم له فى كسب السيطرة على حركة المنفيين كلها ، ومن ثم يجعلها تحت سيطرة المخابرات النازية ضد الاتحاد السوفيتى . وافقت المخابرات النازية لأنها لن تخسر شيئاً ، ورحبت بالفرصة ، وجعلت «سكوبلن» عميلها داخل حركة المنفيين . زعم «سكوبلن» أن له مصادر مهمة فى الاتحاد السوفيتى ، يزودونه بين الحين والحين بمعلومات على جانب كبير من الأهمية ، سوف يتقاسمها مع المخابرات النازية الألمانية . بعد الارتباط بالمخابرات النازية ، تحرك «سكوبلن» إلى المرحلة الثانية من العملية ، كانت مفاجأة «سكوبلن» أنه ادعى أن لديه وثائق تثبت أن قيادة الجيش السوفيتى كانت تخطط انقلابا ضد « **ستالين** » . وكان «سكوبلن» حريصاً جداً على طلب مليونى دولار مقابل هذه الوثائق . وكانت حركة ذكية منه ، لأنه لو قدم الوثائق بلا مقابل، لشكت المخابرات الألمانية فى صحتها . أما أن يكون الثمن غاليا فذاك دليل على أصالتها .

مما يدعو إلى السخرية فى هذه اللعبة الصغيرة أن «رينهارد هيدريك» رئيس المخابرات النازية لا يهتم كثيراً بصحة المستندات . فقد كان يدير خطة عمليته الخاصة المزيفة ، أملا فى زرع وثائق مزورة تدين كبار الزعماء السوفيت بتدبير مؤامرة انقلاب تعصف بستالين . ومن ثم يكون رد الفعل على السفاح الملتاث بجنون الاضطهاد ، أن يمزق الاتحاد السوفيتى سياسياً .

حدث لقاء غريب بين « **سكوبلن** » و « **هيدريك** » ، أدى إلى نتيجة تدعو إلى التهكم . ذلك أن «هيدريك» استنتج بسرعة أن «سكوبلن» يعمل لصالح المخابرات الروسية ، والمعروف أن «ستالين» يديرها بأسلوب مباشر ، حتى يصل إلى إثبات أركان مؤامرة الانقلاب .

مهما يكن من أمر فإن المفاوضات مع «هيدريك» سارت ناعمة ، وانتهت

بموافقة «هيدريك» على شراء وثائق «سكوبلن» . وقال إن لديه وثائق أكثر حساسية حصلت عليها المخابرات الألمانية ، وسوف يدسها لستالين عن طريق واحد من الوسطاء القلائل الذين يثق فيهم «ستالين» ، وهو «إدوارد بينيز» ، رئيس تشيكوسلوفاكيا .

كانت النتيجة واحدة من أفظع حمامات الدماء فى التاريخ . ادعى ستالين أن تمردا عسكرياً قد بات وشيكا ، وقام بعملية تطهير فى القوات المسلحة ، أعدم فيها حوالى ٣٥٠٠٠ ضابط . ولما انتهى التطهير ، كان قد أودى بحياة أكثر من ٩٠٪ من جنرالات الاتحاد السوفيتى ، و ٨٠٪ من رتبة كولونيل ، وأكثر من نصف الرتب الأخرى ، ولم تنهض العسكرية السوفيتية من كبوة المذبحة لعدة سنوات تالية. فلما بدأ الهجوم الألمانى ، وجد أمامه جيشا يكاد يكون بلا قادة ، فخسر سبعة ملايين مقاتل خلال ٢٤ شهراً .

ومهما تكن سعادة حركة المنفيين الروس لهذه النتيجة ، إلا أنهم لم يعلموا شيئاً عن دور «سكوبلن» فيها . وظل المنفيون على شكوكهم فيه وفى زوجته . رأت موسكو ـ لعدة أسباب ـ أن الجنرال «**أنتون ميلر**» ، رئيس الجناح العسكرى لحركة المنفيين ، رجل خطير تجب تصفيته . تقرر اختطافه من مقر قيادته فى باريس ، ثم نقله إلى الاتحاد السوفيتى للتصرف فيه ، وترك تنفيذ اختطافه إلى «سكوبلن» . وفى سبتمر ١٩٣٧ دعاه «سكوبلن» إلى عشاء عمل لمناقشة استراتيجية المستقبل . ومن سوء حظ الداعى أن «ميلر» كان من بين زعماء المنفيين الأكثر شكا فيه . وافق على عقد الاجتماع ، لكنه ـ مدفوعا بالحذر ـ ترك خلفه فى مكتبه قصاصة سجل فيها الموعد .

كلفت هذه القصاصة «سكوبلن» حياته ، وصل «ميلر» فى الموعد المحدد للاجتماع ، فانقض عليه فى الحال أوغاد من المأجورين . لم تدم طويلا مقاومة الجنرال العجوز ، لكن الشجار لفت أنظار شهود عيان . واستطاعت المخابرات السوفيتية فى النهاية لف «ميلر» ووضعه فى سيارة اختفت كما لو ابتلعها الظلام ، ولم تستطع الشرطة الاهتداء إلى «ميلر» الذى كان قد تم تهريبه إلى الاتحاد السوفيتى ، واختفى نهائيا . لكنهم عثروا على القصاصة التى تركها فى مكتبه ، وبحثوا عن «سكوبلن» . اختفى مؤقتا ، ثم قبضوا عليه وعلى «نادجيدا» ، وحوكم

obeikandi.com

الاثنان ، وثبتت إدانتهما بجريمة الاختطاف وحكم عليها بالسجن ٢٠ عاما ، وماتت فى السجن عام ١٩٤٠م .

أما زوجها فقد عرضت عليه المخابرات السوفيتية مساعدته على الهرب إلى الاتحاد السوفيتى حيث توفر له حياة مريحة . فات على «سكوبلن» أن «ستالين» لا يرضى ببقاء من كان حقيبة للأسرار مثله على قيد الحياة .

شوهد «سكوبلن» حيا لآخر مرة فى ميناء برشلونة بأسبانيا محروسا بمجموعة من الجنود السوفيت ، على ظهر السفينة «كوبان» ، قدموا له شرابا تناول جرعة واحدة منه ، كانت كافية لقتله فى الحال بسم دسوه له فيه . ولما وصلت جثته إلى الاتحاد السوفيتى ، أعطوها لمختبر دراسى فى إحدى كليات الطب .

★ لورد بادن باول الكشاف الأول

اشتهر «**لورد بادن باول**» بأنه مؤسس جمعيات فتيان الكشافة ، وخفى على الكثيرين أنه كان من أنشط جواسيس بريطانيا . توافرت فيه عدة سجايا أدخلته عالم الجاسوسية ، منها : حب المغامرة ، والقدرة على تمثيل المواقف، والأناقة ، وغرابة الأطوار .

أنهى «بادن باول» دراسته عام ١٨٧٦ ، والتحق بفرقة «**الهوسار**» الثالثة عشر ، وانتقلت فرقته إلى «**الناتال**» فى جنوب إفريقيا ، بعد خدمة سبع سنوات فى الهند. وهناك حصل على أولى وظائفه فى المخابرات ، كقائد استطلاع سرى لحدود الإقليم البالغ طولها ٦٠٠ ميل . وبعد عامين نقل إلى إنجلترا ، ثم عاد إلى جنوب إفريقيا عام ١٨٨٧ ، فى وظيفة ضابط مخابرات فى الحملة ضد أرض الزولو .

فى عام ١٨٩٠ عين «باول» سكرتيراً عسكرياً لعمه حاكم «**مالطا**» ، وتولى بعد عام وظيفة ضابط مخابرات منطقة البحر الأبيض المتوسط . فى هذه الوظيفة أتيح له قدر كبير من حرية الحركة والعمل ، فاستغل سلطاته ومهاراته فى خدمة الجاسوسية البريطانية ، وقد عرف عنه إجادة التنكر ، فلما طلب منه ذات مرة أن يجمع المعلومات عن كيفية تسليح إحدى القلاع ، تنكر فى زى فنان ، وتدرب على صيد الفراشات بالشبكة ورسم لوحات لها ، قبل أن ينطلق فى مهمته ، ليسجل تفاصيل المدافع والأسلحة وتحصينات القلعة .

بدأت شهرة «**باول**» تومض فى آفاق بريطانيا بعد صموده المثير ٢١٧ يوماً محاصراً فى بلدة «**مافكينج**» بجنوب إفريقيا ، أثناء حرب البوير ، إلى أن وصلته الإمدادات وفك الحصار عام ١٩٠٠ . وبلغ آنذاك من الشهرة ما جعل «**ونستون تشرشل**» يقول عنه : «لو كان هناك من يقال عنه إنه كسف بشمس شهرته غيره من الأبطال ، لكان ذلك «بادن باول» .

كان «بادن باول» يخفى نشاطه كجاسوس تحت عباءتين فضفاضتين :

* **الأولى** : كونه مفتشا لفرقة الخيالة البريطانية ، فحمله هذا المنصب إلى أمريكا، وكندا ، وألمانيا ، والهند ، ومصر ، وجنوب إفريقيا ، وغيرها من الدول الدائرة فى فلك بريطانيا .
* **والثانية** : كونه رائد الكشافة الأول ومبتدع فكرتها .

كان قد نشر أثناء حصار «مافيكينج» كتابا بعنوان : «**وسائل مساعدة للاستكشاف**» . واكتشف أن هذا الكتاب لاقى انتشارا أكثر فى الأوساط المدنية مما لاقى فى الأوساط العسكرية ، وأنه كان مرجعا لتجمعات وأندية الشباب . فأثار ذلك فى نفسه اهتماما أكبر بمشاكل الشباب والأولاد ، وحفزه على محاولة تنظيمهم فى إطار يضمن لهم حرية التصرف فى العمل وفردية السلوك بما يلبى تطلعاتهم .

تنبه «بادن باول» عام ١٩٠٤ إلى أن الشباب يقبلون بالآلاف على التدريب فى صفوف الكشافة ما دام التدريب يشبع هواهم ويروق لهم ، وأن الكثيرين منهم مستعدون للتضحية بوقتهم وطاقاتهم من أجل التدريب والتنظيم . وأدرك أثناء تعامله مع فرق الأولاد أن جماهير الشباب فى العالم بحاجة إلى حركة عالمية تتيح لهم التعبير عن أنفسهم وذكائهم وروح المبادرة والمغامرة لديهم . وفى ضوء ذلك تقدم «بادن» بتوصيات لتطوير فرق الأولاد والمهام التى تقوم بها ، سواء شكل أفراد أو جماعات . ومنها أعمال : المراقبة ، والإسعاف الأولى ، وقياس المسافات تقديريا ، ومهارات إقامة المعسكرات ، وتتبع الأثر ، والسباحة ، وإشعال المواقد والنيران بعودى ثقاب فقط ، والطبخ دون أدوات طبخ ، وسباق الكشافة باستخدام البوصلات ، ومهارات الاستطلاع وكتابة التقارير .

وانطلاقاً من هنا ، شرع فى إعادة كتابة مؤلفه سابق الذكر تحت عنوان «وسائل مساعدة للاستكشاف» . وفى يوليو ١٩٠٧ أقام معسكرا فى إحدى الجزر البريطانية، صاحبه فيه ٢١ شاباً ، وكان ذلك أول معسكر للكشافة . ولم يكن بين

تلك الحفنة القليلة ممن عاشوا فى كنف ذلك المعسكر التجريبى من خطر بباله أنه سيكون رائداً فى حركة كشافة عالمية .

وفى العام التالى ألف كتابا عنوانه «**علم كشافة الأولاد**» تهافت عليه الشباب ، ونفد من الأسواق بسرعة مذهلة ، وأصبح الكتاب المرجع الأول والأهم لحركة الكشافة العالمية ، وترجم إلى ٣٥ لغة ولهجة عالمية .

وفى عام ١٩٠٩ زار «باول» البرازيل . واستقبل استقبالا حافلا فى «**ريو**» و«**بيونس إيريس**» . وكانت تشيلى أول بلد خارج بريطانيا تبنت فكرة الكشافة وطبقتها . وفى عام ١٩١٠ استعرض أول تجمع كشفى فى قصر «**الكريستال**» البريطانى ، الذى شارك فيه ١١٠٠٠ كشاف . وازدهرت الحركة الكشفية فى كندا والولايات المتحدة عام ١٩١١ ، وأقيم التجمع الثانى للحركة فى بريطانيا وشارك فيه ٢٦ ألف كشاف بحضور الملك جورج الخامس والملكة مارى . وعاشت الحركة الكشفية عصراً ذهبياً ترفع أعلامها فى أكثر من ١٠٠ بلد من بلدان العالم. وبلغ أعضاؤها أكثر من ١٥ مليون كشاف بين ولدان وشبان وفتيات وشابات .

هناك من يربط بين موقع «بادن باول» كقائد للحركة الكشفية العالمية ، وبين اتخاذها كمصدر لجمع المعلومات ، خاصة وأنه كان يهتم بتحليل التقارير التى ترد إليه من جميع أنحاء العالم .

كان يجيد التنكر والتمثيل . طُلب منه أن يتحقق من صدق شائعة عن إنشاء حوض بناء سفن كبير فى «**هامبورج**» . فتظاهر بأنه مجنون يترنح ، وتسكع فى المكان يفحصه ، فلما اعتقله الحراس الألمان اعتقدوا أنه مجنون بالفعل ، وعاجز عن إدراك ما يدور حوله ، فأخلوا سبيله .

فى الفترة الأولى من حرب «**البوير**» الثانية كلفوه باستكشاف جبال «**دراكنزبيرج**» ، فنجح فى عقد صداقات مع عدد من الفلاحين «البوير» وخلال حصار «**مافكنج**» استطاع تجنيد عدد من فتيان الكشافة «**الزولو**» ، ودربهم تدريبا مكثفا سريعا . واقتنع خلال الحملة أن أصابع ألمانيا تحرك المقاتلين البوير ، لكنه عجز عن إقناع السلطات البريطانية بذلك .

من المعروف أن «باول» خدم بلاده فى ميدان الجاسوسية خلال كل من أوروبا ، وجنوب إفريقيا ، وتركيا ، والجزائر ، وتونس ، وأعماق الصحراء الكبرى ، وتوفى «**لورد روبرت بادن باول**» فى ٨ يناير ١٩٤١م ، فى بلدة «**نايرى**» بكينيا .